# البوابة الجنوبية لفلسطين بين غزة وبئر السبع

منصور النصاصرة

## بلاد غزة

يشمل المحيط الاجتماعي والسياسي في الجنوب الفلسطيني نطاقاً جغرافياً ممتدّاً من جبال الخليل شمال شرق بئر السبع حتى العقبة جنوباً، ومن عوجا الحفير ووادي العريش وغزة وساحل يافا غرباً إلى وادي عربة إلى معان شرقاً. وقد تضافرت في هذا الامتداد الجغرافي الرحب عوامل عديدة، مترابطة ومتداخلة، نسجتها الذاكرة وتراكمات التجربة الإنسانية، الحاضر منها والغائب، والمتجذِّرة في الطرق والأماكن والمشهد الطبيعي، والتي تظهر في أنماط الحكم المتعاقبة وإمكانيات المكان والقيود المفروضة عليه، فضلاً عن الروايات الشفوية التي يحملها أهله.

عُرف جنوب فلسطين بـ"بلاد غزة" في القرن التاسع عشر وما قبله، وتولّت إدارته متصرفية القدس بشكل مباشر. وفي العام 1900، فصل العثمانيون ديار بئر السبع إدارياً عن قضاء غزة، لتصبح قضاءً مستقلاً. ضمَّ قضاء غزة 62 قرية فلسطينية، بما فيها عدد كبير من العشائر البدوية التي امتدَّ وجودها إلى قرى قضاء غزة خلال فترة الاحتلال البريطاني، وذلك بحكم الروابط الاجتماعية والاقتصادية وعلاقات النسب. [1] ويورد الرحَّالة والمؤرخ البريطاني ثيودور إدوارد داولينغ في كتابه مطلع القرن العشرين أن غزة كانت "تبعد 12 ميلاً شمالي مدينة رفح. وهي [قضاء غزة] مركز إداري واقتصادي لـ 62 قرية مجاورة لها والكثير من العشائر البدوية التي قطنت في هذا الحيز."[2]

واشتمل هذا القضاء على مدينة المجدل وخان يونس والفالوجة ورفح، كما ضمَّ خلال الاحتلال البريطاني قرى مركزية تقع على خطوط التجارة وسكك الحديد الحيوية التي تربط بين الجنوب الفلسطيني بالقدس والخليل، مثل: بريـر وبربرة والفالوجة وعراق المنشية ومجدل عسقلان وعراق سويدان وهوج والجمّامة وبيت دراس والجورة وجولس وتل الحسي ووادي الشلالة وتل الشريعة وغيرها.

هذا الانتشار للعشائر والعائلات بين غزة وبئر السبع، والروابط الاجتماعية بين قرى الجنوب الفلسطيني، جعل من الصعب الفصل بين قضاءي بئر السبع وغزة، حيث استمر التواصل الاجتماعي والجغرافي في تشكيل ملامح ميَّزت هذه المنطقة بشكل كبير، وذلك حتى عام النكبة. لهذا، لم يكن الفصل الإداري والجغرافي بينهما إلا على الورق لا غير، حيث استقرَّت العديد من العشائر البدوية في قضاء غزة، واستمرَّت علاقة متجذرة وممتدَّة بينهما على مستويات اقتصادية واجتماعية وسياسية.

أما قضاء بئر السبع، الذي تتعامل معه الدراسة، فكان يمتدُّ، بحسب مصطفى مراد الدباغ، على مساحة كانت تُقدَّر بـ 12,577,000 دونم. ألف دونم، من قرية الفالوجة شمالاً وغزة غرباً والخليل شرقاً وصولاً إلى أم الرشراش على خليج العقبة جنوباً، بما يشكِّل نحو نصف مساحة فلسطين التاريخية، وهي المنطقة المعروفة اليوم بالنقب. [3]

في هذا الفضاء الجنوبي نشأت مدينة بئر السبع، متمركزة في واحد من أهم المواقع السياسية والجغرافية في البلاد العربية. إذ يشير الضابط البريطاني الذي تولَّى إدارة سيناء ضمن الجهاز الاستعماري البريطاني، الميجر كلود جارفيس، إلى أن القبائل العربية في جنوب فلسطين استقرَّت فيما اعتبره "أكثر المواقع استراتيجية في الشرق الأوسط"، [4] لكونها تشكِّل تقاطع طرق تجارية وتحدُّ البحر الأحمر مجاورةً مصر وسورية وإمارة شرق الأردن، وتمثِّل حلقة وصل بين آسيا وأفريقيا. كما تقع عند ملتقى عدة طرق تجارية، منها طريق العقبة-غزة، وطريق الخليل-العقبة، وعلى محور رئيسي يربطها بغزة ومجدل عسقلان والفالوجة والقدس، وحتى مدينة معان في البادية الجنوبية للأردن.

وتزخر بئر السبع وديار الجنوب الفلسطيني بالعديد من المواقع الأثرية التي تعود إلى عصور مختلفة، أذكر منها: الخلصة والرحيبة وتل الملح وتل ووادي الحسي وتل الفارعة وعسلوج وعوجا الحفير وسبيطة وعبدة وكرنب وتل أبو جابر وتل الشريعة ومشاش الملح وتل أبو محفوظ وتل المليحة وغيرها. وتمر فيه عدَّة أودية بارزة مثل وادي السبع ووادي الخليل ووادي غوين ووادي الشريعة ووادي غزة وغيرها.

مرئية رقم (1): مدينة غزة في العام 1916، صورة جوية، الأرشيف البريطاني

## بئر السبع: المدينة البدوية الفلسطينية ذات الفسيفساء النادرة

بداية، نطرح السؤال: كيف تأسست هذه المدينة التي كانت الحصن المنيع لفلسطين وجنوبها؟ وما الذي ميّز نسيجها الاجتماعي الفريد؟ ونبدأ حديثنا عن بئر السبع من الأرشيف العثماني في إسطنبول. حيث تذكر الوثائق إن جنوب فلسطين لم يحظَ باهتمام كبير من السلطة المركزية، إلا بعد إعادة تخطيط بئر السبع الحديثة وبنائها في العام 1900. أصبحت مدينة بئر السبع مركزاً إدارياً جديداً للمنطقة، وذلك بعد أن جرى فصلها إدارياً عن قضاء غزة. [5] ومن المرجَّح أن الاهتمام العثماني ببئر السبع كان مرتبطاً برؤية استراتيجية هدفت إلى تعزيز الحكم العثماني في جنوب فلسطين. ويمكن القول إن هذه الدوافع تمثَّلت بمحاولة السيطرة على العشائر البدوية وتنظيم وجودها تحت إدارة مركزية، بالإضافة إلى ضمان السيطرة على هذا الموقع الحيوي والمركزي لجنوب فلسطين الذي يحتل حيزاً مهماً ضمن الخارطة الجيوسياسية للمنطقة.

بحلول العام 1900، أصبحت بئر السبع المركز الإداري الجديد في جنوب فلسطين، في إطار المساعي العثمانية لتعزيز السيطرة على المنطقة. وأقدمت السلطات على شراء نحو ألفي دونم من عشيرة العزازمة، عبر اتفاق مع زعيمها حسن الملطعة تمهيداً لتخطيط المدينة وبنائها، بمشاركة فريق ضمَّ معماريين فلسطينيين وعرباً وأجانب، كان من أبرزهم سعيد أفندي النشاشيبي وراغب أفندي النشاشيبي. تُظهر الخرائط المستخرجة من الأرشيف العثماني أن المرحلة الأولى من المشروع بدأت بإنشاء المباني الإدارية الحكومية، المعروفة بالسرايا. وقد شملت عدداً من المؤسسات الحيوية، من بينها مدرستان خُصصتا لأبناء العشائر البدوية، ومحكمتان: واحدة للعشائر وأخرى شرعية، فضلاً عن مكتب للبريد ومقرٍّ للقائم مقام ومركز للشرطة، بالإضافة إلى مكاتب خاصة بعمال البلدية.

مرئية رقم (2): المدرسة الأميرية الرشيدية في بئر السبع، تصوير المؤلف، 2024

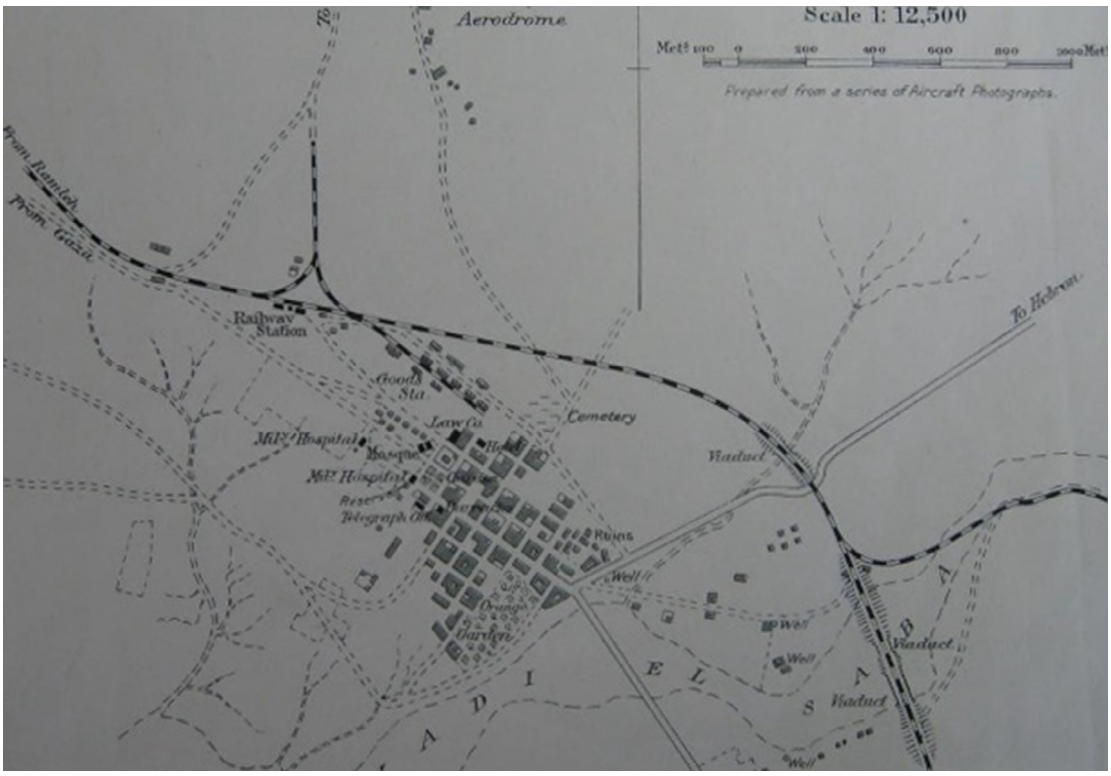


مرئية رقم (3): خريطة مدينة بئر السبع، الأرشيف البريطاني

تُظهر خريطة الأرشيف الاستعماري البريطاني، [7] أنه كان لدى مدينة بئر السبع بحلول العام 1916 منظومة آبار، وعددها خمس، موزَّعة في مواضع مختلفة في المدينة، لتزويدها بشبكة مياه واضحة المعالم، أُشير إليها على الخريطة أعلاه بكلمة "بئر". كما تورد صحيفة **الصحراء** في صور في العام 1916 أنه تمَّ تزويد ديار بئر السبع بشبكات للمياه والكهرباء، تضمَّنت نظاماً لريِّ حدائق البرتقال التي تمركزت في ميدان جمال باشا. وخلال زيارتنا الميدانية لبعض بيوت بئر السبع التي بُنيت في تلك الفترة لاحظنا أيضاً وجود آبار مياه محفورة يدوياً داخل البيوت أو ملاصقة لجدرانها، ما يشير إلى الاعتماد على مصادر إضافية إلى جانب الشبكة المركزية. وقد ساهمت الآبار التي أنشأها جمال باشا في عدة نواحٍ من المدينة، والتي ما زالت قائمة حتى اليوم، بشكل ملموس في نمو المدينة وازدياد عدد سكانها واستقطاب طبقة من التجار والحرفيين من أبناء المدن الفلسطينية في الساحل الفلسطيني والقدس والخليل.

وفي المرحلة الثانية التي امتدَّت بين عامي 1904-1906، تمَّ تشييد مسجد بئر السبع الكبير بتبرعات سخية من أبناء العشائر. ويُذكر هنا أن آصف بيك الدمشقي، الذي شغل منصب قائم مقام بئر السبع في تلك الأعوام، قد أتى بحجارة مئذنة المسجد من موقع خربة الخَلَصة. وبُني أيضاً في الجهة الشرقية من المدينة مسجد بيسو. كما تمَّ تشييد مدرسة مكوَّنة من طابقين خُصِّصت لطلبة الجنوب الفلسطيني. ويفيد أحمد أمارة، في كتابه **ديار بئر السبع**، بأن المدينة شهدت تطوراً لافتاً خلال فترة آصف بيك الدمشقي، لتشمل "مكتب بريد وتلغراف ودار سينما ومبنى مدرسة وخزان مياه وشبكة توزيع للمياه ومسجداً وحدائق عامة." [8]

مرئية رقم (4): صورة لمسجد بئر السبع الذي بني في العام 1904-1906
على أراضٍ موقوفة بعد أن تبرعت بها عشائر بئر السبع، تصوير المؤلف، 2024

وبُنيت فيما بعد مدرسة زراعية لخدمة وتعليم ثلاثين من أبناء العشائر والقرى المجاورة، كما يشير أحمد أمارة، انخرط فيها أبناء البدو في إطار استراتيجية توسيع المعارف الزراعية لدى أبناء العربان. [9] وخلال تلك الفترة أيضاً، أرسل بعض البدو أبناءهم لتلقي الدراسة في مدرسة العشائر في إسطنبول والتي ما زالت قائمة حتى اليوم في حيٍّ بشكتاش. وإلى حدٍّ كبير، ساهم تزويد مدينة بئر السبع بشبكة مياه وكهرباء في استقطاب الكثير من أبناء الخليل والقدس وغزة وأبناء العشائر للهجرة إليها وامتلاك العقارات فيها، كما أسهم ما وفَّرته من خدمات تعليمية وفرص اقتصادية ومجالات عمل في تحويلها إلى مركز جذب حيوي في جنوب البلاد. وفي موازاة ذلك، أُنشئ السوق البدوي الشهير والمطحنة وعدد من المحال التجارية، ضمن مساعي تشجيع البدو على الاستفادة من خدمات المدينة ومؤسسات الحكومة. وتشير الوثائق العثمانية في تلك الفترة إلى أن بعض أبناء بئر السبع وغزة التحقوا بمدرسة السلطان عبد الحميد في إسطنبول. [10]

وتوضِّح الأرشيفات العثمانية أسماء الشوارع في تلك الفترة، من بينها شارع غزة وشارع سوق الأربعاء وشارع بسيسو وشارع جمال باشا وغيرها، ما يعكس ملامح مدينة عصرية آخذة في التشكُّل، تدلُّ أسماء شوارعها على التركيبة الثقافية والاجتماعية لجنوب البلاد في تلك المرحلة

من تاريخها. وفي مقالة منشورة في العام 1916، تصف صحيفة **الصحراء في صور**، التي كانت تصدر في بئر السبع باللغتين العربية والتركية، المدينة على الوجه التالي: "فمدينة بئر السبع تشبه البلاد الراقية بترتيب هندستها بأبنيتها وشوارعها. أول ما ينظر الداخل إلى بئر السبع يرى الخضرة والنظافة، حديقة في وسطها مصايف... الأبنية والمصانع والمطاحن البخارية بفضل توليد الكهرباء... فيها الأبنية والدوائر الحكومية والعسكرية والملكية والمستشفيات وعموم المعامل. فيها المدارس، ومطبعة وحمامات وسينما وجنائن متعددة داخل البلدة للنزهة وبساتين خارجها. اليوم ينشأ فيها ترامواي حديدي يشق البلد من أولها إلى آخرها مروراً بشارع جمال باشا، وممتداً إلى محطة سكة الحديد. أنشأ فيها جمال باشا الآبار الكثيرة وبرك المياه المتعددة، وكل ذلك على أحدث طرز وفن. بنى فيها دور الحكومات المحلية ومساكن عمومية للعربان والبدو وأسكنهم فيها، وهو يُجري عليهم الأرزاق."[11]

مرئية رقم (5): بيت فلسطيني في بئر السبع
يشير إلى نموذج عمراني مشابه للقدس وحيفا ويافا، تصوير المؤلف، 2024

## شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين بئر السبع وغزة ومدن الساحل الفلسطينية

بحلول العام 1914، وصل عدد سكان مدينة بئر السبع أكثر من ألف نسمة، وتجاوز عدد بيوتها أكثر من مئتي بيت وما يقارب خمسين محلاً تجارياً. ازدهر التطور الزراعي والعمراني فيها بشكل ملحوظ بعد افتتاح محطة القطار التي ربطتها بمدن فلسطينية أخرى مثل القدس وغزة والخليل وحتى القاهرة والقارة الأوروبية. كما أدّى التخطيط العصري، وتطوير مرافقها الخدماتية من ماء وكهرباء وبريد وتجارة، إلى استقطاب طبقة من الحرفيين من المدن الفلسطينية المجاورة. وشكّل السوق البدوي المركزي مركز جذب للكثير من التجار مسهماً في تطوير تجارة الأقمشة والصوف والقهوة والقمح والتبغ وغيرها من منتوجات الجنوب الفلسطيني التي تدفقت إلى سوق بئر السبع. وفي الوقت ذاته، ظلّت مصادر المياه، من الآبار والمياه القادمة من خارج المدينة، مصدراً مركزياً للحياة والزراعة. وبالإضافة إلى ذلك، ساهم ازدياد القروض الزراعية العثمانية لأبناء العشائر في تطوُّر الزراعة وطرق الريّ، كما يشير أحمد أمارة إلى دور القروض الزراعية التي قدّمها البنك الزراعي العثماني للبدو في بئر السبع في تحسين الإنتاج الزراعي وتوطيد العلاقة بين البدو وأراضيهم في هذا القضاء. [12]

بقيت زراعة القمح والشعير وتصديرها عبر غزة تشكّل أهم مصادر اقتصاد بدو الجنوب الفلسطيني. وتمحورت سبل العيش التقليدية حول تربية الماشية، خاصة الإبل والأغنام، حيث كانت قطعان الأغنام تباع في أسواق غزة والمجدل الفالوجة وبرير وأسدود والخليل، ونُقلت قطعان الماشية من غزة إلى مصر ويافا والقدس. وقد تخطّت شبكة تجارة الماشية حلقة واسعة وامتدّت عبر شرق الأردن، ما عزز من مركزية سوق بئر السبع بأغنامه وصوفه. أما مدينة الخليل فقد أصبحت سوقاً ومركزاً تجارياً لسلع بدو جنوب وشرق بئر السبع. كما ساهمت المحلات التجارية وورشات الخياطة وتجارة الصوف والنسيج، التي كان يملكها البدو في منطقة بئر السبع وغزة وبرير، في جعل جنوب فلسطين مركزاً اقتصادياً مهماً. على سبيل المثال، كانت العباءات البدوية تباع في غزة والفالوجة وبرير، وقامت عائلة الشرفا الغزية بتوسيع نطاق التجارة بها من خلال إنشاء عدد من المحلات التجارية في غزة وبئر السبع، متخصصة ببيع الملابس التقليدية الرجالية والنسائية.

وجد السبعاويون مجالات إنتاج إضافية بعد ازدياد الطلب على المحاصيل الزراعية مثل القمح والشعير. وتوسَّعت رقعة الأراضي الزراعية تزامناً مع اتساع وتطور البنية التحتية والتقدم التكنولوجي في المنطقة، ما أتاح استغلال الأودية والحقول لتطوير الزراعة البعلية. وانتشرت الحقول الزراعية في جميع أنحاء الجنوب، من شرق غزة وحتى جنوب تلال الخليل، تتصدَّرها زراعة الحبوب (القمح والشعير والسمسم) وبيعت منتوجاتها في أسواق غزة أو تمَّ تصديرها عبر البحر الأبيض المتوسط إلى أوروبا ومصر. من الأمثلة على ذلك تزويد البدو معظم إنتاج الشعير إلى بريطانيا، كمادة خام لصناعة البيرة، والتي بلغت قيمتها 600 ألف دولار في العام 1906. وقد تجاوزت كمية تصدير القمح والشعير من جنوب فلسطين كميات تصدير البرتقال من يافا إلى الأسواق الأوروبية، ووصلت صادرات الشعير من جنوب فلسطين إلى الأسواق الأوروبية إلى 70 ألف طن. [13] يشير الأرشيف البريطاني في أوراقه إلى أن: "الشعير المنتَج في المنطقة الجنوبية من فلسطين ذو نوعية ممتازة... [والذي] اعتمد بشكل كامل على أمطار أوائل الربيع،

أمطار آذار ونيسان..." وفي العام 1908، تمَّ تصدير 38 ألف طن وتراوحت الأسعار المدفوعة في الفترة من العام 1908 إلى العام 1909 (بين 24/9 إلى 25/9)، حتى بلغت حوالي 26 جنيه إسترليني لكل ربع طن. [14] توسَّعت الأنشطة الاقتصادية في جنوب فلسطين أكثر مع أواخر الحقبة العثمانية وتوظيف السلطات رؤوس أموال استثمرت في شق الطرق وتوسيع شبكة الاتصالات، ومعها ازدادت مكانة مدينة بئر السبع ومركزيتها. فارتفع الإنتاج الزراعي المخصص للتصدير استجابةً للطلب، وتمَّ إبرام اتفاقيات تبادل مختلفة وتسهيل القروض، في وقت اعتمد فيه الأوروبيون على الإنتاج الزراعي لجنوب البلاد، ما عزَّز من مكانة بئر السبع ونفوذها الإقليمي واتساع إمكانيات "السبعاوي" في الإنتاج. وبموازاة ذلك، اضطلع أهالي بئر السبع بأدوار إدارية مهمة، من ضمنها تولِّي مسؤولية محكمة العشائر، وتبوؤ مناصب مركزية في الجهاز الإداري. يبرز من بين هؤلاء الشيخ حمَّاد الصوفي الذي انتُخب رئيساً لبلدية بئر السبع في العام 1913، ومُنح لقب "باشا" لدوره هذا في جنوب فلسطين. [15]

كان تطور مدينة بئر السبع وعلاقتها بحيِّز المدينة الفلسطينية والعربية نقطة فاصلة في التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الفلسطيني. فقد جمعت هذه المدينة الجنوبية مركبات المجتمع الفلسطيني المختلفة لتشكِّل فسيفساء اجتماعية متنوِّعة ونادرة تضمُّ عائلات بدوية محلية إلى جانب العديد من العائلات التي وصلت من الخليل وغزة والقدس وبيت لحم ويافا وقرى الساحل الفلسطيني. وقد مثَّل هذا النموذج حالة فريدة في دراسات المدن، بالمقارنة مع التركيبة الاجتماعية للمدن الفلسطينية اليوم. جعلت هذه الفرادة الاجتماعية لبئر السبع منها، إلى جانب موقعها الاستراتيجي، محطَّ أنظار القوة الاستعمارية البريطانية وأطماعها. ولاحقاً، سيتمُّ احتلال فلسطين من الجنوب، وتحديداً من غزة ثم بئر السبع.

أما عن ارتباط أهل الجنوب الفلسطيني بالبحر، فيتجسد بارتباط أهالي بئر السبع وغزة بميناءَي غزة ويافا، ودورهما في تصدير البرتقال والقمح والشعير إلى الأسواق المحلية والعالمية. كما تمثَّل هذا الارتباط بطرق الحج الشامي والمصري، وفي علاقات التعليم والدراسة التي امتدَّت من مدرسة بئر السبع الأميرية إلى مدارس القدس، وصولاً للسفر إلى إسطنبول ودمشق وبيروت والقاهرة. إلى جانب ذلك، بقيت الذاكرة المكانية لأهل غزة وقرى الجنوب الفلسطيني حاضرة، يتناقلون عبرها ذاكرة وديان المنطقة كوادي غزة ووادي الحسي ووادي الشريعة جيلاً بعد جيل، كما بقيت ذاكرة آبار المياه حاضرة هي أيضاً لدى معظم أهالي قرى قضاء غزة المهجرة والجنوب الفلسطيني.

## الحرب على بوابة فلسطين الجنوبية
## غزة وبئر السبع في مواجهة بريطانيا الاستعمارية

في العام 1915، إبَّان الحرب العالمية الأولى، بنى العثمانيون سككاً حديدية تربط بئر السبع بعوجا الحفير في محاولة لشنِّ هجوم على مصر. ووصل أول قطار إلى بئر السبع في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. ولاحقاً، اكتملت شبكة السكك الحديدية بعد توسيعها لتشمل سيناء وغزة.

طمع الإنجليز خلال الحرب العالمية الأولى في احتلال معقل العثمانيين العسكري في بئر السبع، والذي

كان يمثِّل الحصن المنيع للجيش العثماني جنوبيّ فلسطين في العام 1916. بدأ الجيش الإنجليزي توجيه ضرباته ضد القوات العثمانية المتمركزة في الجنوب، واستطاع في البداية احتلال رفح، لكنه توقَّف عند مشارف غزة. عُين الجنرال إدموند ألنبي آنذاك للإشراف على القوات الاستعمارية البريطانية التي تحاول احتلال غزة والتقدُّم نحو بئر السبع، لكنَّهم فشلوا في احتلالها خلال المحاولتين الأولى والثانية، حيث تمكَّنت القوات العثمانية من صدِّ الهجمات البريطانية على غزة في ربيع عام 1917. تكبَّد الطرفان خسائر بشرية كبيرة في هاتين المعركتين. [16] خسر الإنجليز وحلفاؤهم في معركة غزة الأولى أربعة آلاف جندي، وخسروا في المعركة الثانية التي كانت أشدّ ضراوة سبعة آلاف جندي. مع ذلك، تمكَّنوا من إحراز بعض التقدم في خطّ بئر السبع-الشريعة.

في قصاصة صحافية وجدت بين أوراقه في "أرشيف جامعة كينغز كوليدج-لندن"، يعترف ألنبي بشراسة المقاومة التي واجهها الإنجليز وحلفاؤهم أثناء محاصرة غزة وبئر السبع ومواقع أخرى في فلسطين. لم تتمكن القوات الاستعمارية البريطانية بقيادة ألنبي من احتلال غزة، إلا في المحاولة الثالثة، وذلك بعدما ذاقت مرارة الهزيمة في المعركتين الأولى والثانية. [17] وما أن أُحكمت السيطرة الاستعمارية البريطانية على غزة في العام 1917، حتى أصبحت بئر السبع هدفاً قريب المنال، لتسقط هي الأخرى في يد ألنبي بعد فترة وجيزة من سقوط غزة.

انخرط بدو بئر السبع في محطات نضالية مهمة لأهل البلاد، نذكر منها على سبيل المثال التظاهرات التي اندلعت في العام 1929 ضد الهجرة اليهودية والسلطات البريطانية، فضلاً عن المشاركة السياسية الفاعلة في العديد من المؤتمرات التي دعت إليها القيادة السياسية الفلسطينية. كما شارك ممثَّلون عن بئر السبع في اللجنة العربية العليا والمجلس الإسلامي الأعلى في غزة، بينما سُجِّلت مشاركة نساء قضاء بئر السبع في المؤتمر النسائي الفلسطيني الأول في ثلاثينيات القرن العشرين. [18]

لا تزال ذاكرة الأجيال الأكبر سناً من بدو بئر السبع تحفظ اسم عيد الصانع، أحد أبرز قادة الثوار من عشائر الترابين وأحد رموز المقاومة في منطقة بئر السبع. في العام 1932، أُرسل المفتش أ. هـ. ليفيس إلى بئر السبع كملازم ثانٍ في مهمة ضد مجموعة من الثوار بقيادة عيد الصانع، وشرع في ملاحقة قائد الثوار لاعتقاله دون أن ينجح بالقبض عليه: "في السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر 1932، وبعد شهر واحد فقط من وصوله، قاد [ليفيس] دورية كانت تحاصر عصابة من العرب على مسافة نصف يوم من بئر السبع، وكان يقودها عيد الصانع الذي كان مطلوباً من الشرطة منذ زمن."[19]

ومن بين الوقائع الأخرى الموثَّقة، تذكر صحيفة **الدفاع** تحرُّكات البدو ضد حكومة الانتداب خلال الأيام الأولى من الثورة الكبرى في الثلاثينيات، من بينها التظاهرات التي قادها طلبة بئر السبع، والاشتباكات التي دارت بين ثوار بدو بئر السبع والقوات الاستعمارية البريطانية، مثل الهجوم على مركز الشرطة في قرية الجمامة (مستعمرة روحاما). [20]

وفي أيلول/ سبتمبر 1938، خلال ما عرفت لاحقاً بـ"الثورة الكبرى"، أحرز ثوار بئر السبع نجاحاً استراتيجياً بعدما تمكَّنوا من استعادة بئر السبع والسيطرة على مكاتب الحكومة البريطانية والاستيلاء

على أسلحة الشرطة، وهو الأمر الذي تؤكده تقارير سرية كشفتها الأرشيفات البريطانية، ويتكرر في شهادات التاريخ الشفوي. تمكّن الثوار من تحرير بئر السبع واستعادتها بعد طرد الحامية البريطانية منها، لتصبح المدينة الفلسطينية الوحيدة التي نجحت في التحرر من قبضة الاحتلال البريطاني. ولم تتمكن القوات البريطانية من السيطرة عليها مجدداً إلا بعد شهرين في تشرين الثاني/ نوفمبر.

تفيد إحدى الشهادات الشفوية أن مشايخ البدو انضموا إلى ثوار الخليل وطولكرم بقيادة عبد الحليم الجولاني، الملقب بـ"الشلف"، لاستعادة مدينة بئر السبع. وفي تشرين الأول/ أكتوبر 1938، نشرت صحيفة **التايمز** اللندنية تعليق المفتش العام السابق جي. بي. سبيسر على تحرير ثوار بئر السبع والخليل، جاء فيه: "قامت مجموعة متمردة تتألف من 300 مسلح بغزو الخليل ليلاً، ثم أكملوا طريقهم إلى بئر السبع حيث ضربوا المباني الحكومية. ولم تسترجع الكتيبة الثانية البريطانية بئر السبع إلا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1938 بعد أن كانت تحت سيطرة المتمردين الفلسطينيين التامة لفترة لم يكن فيها حكم من أي نوع للسلطات البريطانية في بئر السبع، وإنما كانت تحت سيطرة البدو والثوار. وقد استطاع المتمردون الاستيلاء على مكاتب الحكومة وتدميرها والسيطرة على أسلحة الشرطة."[21]

ويشير غاوين بيل إلى أن المباني الحكومية ضُربت على يد "متمردي الخليل وطولكرم بدعم من العشائر"، وأن البريطانيين كانوا يتوقعون أحياناً مساعدة المشايخ المحليين لهم في القبض على أعضاء الجماعات المتمردة بين العشائر، [22] وهو ما يفسِّر إعادة بناء محطات البوليس بعد انتهاء الثورة لإعادة فرض السيطرة على المدينة، التي أدار بلديتها حينها تاج الدين شعث، ثم شفيق مشتهى الذي كان آخر رئيس بلدية لمدينة بئر السبع قبل سقوطها في نكبة العام 1948.

وعلى الرغم من تغييب دور البدو في هزيمة البريطانيين في هذه المعركة، يُفصح الضابط الذي تولّى إدارة لواء غزة–بئر السبع ضمن الجهاز الاستعماري البريطاني، سي. أي. في. بكستون، عنه بالقول: "يشعر مشايخ بئر السبع بإجلال كبير للجماعات المتمردة في الخليل التي ضمنت فعلياً انسحاب سيطرة الحكومة البريطانية من كامل منطقتهم في أيلول/ سبتمبر الماضي، ونتيجة ذلك اعتقد المشايخ أن من الحكمة أن يعلنوا ولاءهم للمتمردين بشكل لا لبس فيه. تبقى الحقيقة أن 75 % من السكان الذكور بالقرب من خط السكة الحديد قاموا بضرب الخط في أيلول/ سبتمبر الماضي، منضمِّين بذلك إلى المتمردين العرب.... إنهم يؤكدون أن السكان سيساعدون المتمردين ضد القوات الحكومية."[23]

وتذكر روايات الأرشيف البريطاني أن الجيش المصري دخل المدينة فور انسحاب الإنجليز منها ليرفع العلم المصري والفلسطيني على أسوار سرايا بئر السبع حتى وصول قوات الاحتلال الصهيونية التي احتلت المدينة وطردت جميع سكانها إلى غزة وسيناء والأردن والضفة الغربية.

تشير الإحصائيات إلى نزوح وتهجير معظم البدو الفلسطينيين الذين استقروا في قضاء بئر السبع بعد عام النكبة، ولم يتبقَّ منهم إلا نسبة لم تتعدَّ الـ 10 %، أي ما لا يتعدَّى الـ 13 ألف نسمة من أصل 95 ألف في أواخر فترة الانتداب. [24]

بقيت غالبية عرب النقب وبئر السبع تحت الحكم العسكري الصارم بجميع أشكاله، وذلك حتى حرب العام 1967. ومن ثم بدأت حقبة الاستيطان القسري والقُرى التي أسست في أواخر ستينيات القرن العشرين. مثَّل سقوط بئر السبع في 21 تشرين الأول/ أكتوبر النكبة بكل تجلياتها. في عيون عرب النقب، كان سقوط بئر السبع "يوماً أسود" في تاريخهم، أشاروا إليه باسم "كَسرة السبع"، أي "نكبة بئر السبع" باللهجة البدوية المحلية.

لم تنتهِ النكبة في قضاء بئر السبع، حيث ما زالت القرى النقباوية تعيش سياسات التهجير والاقتلاع حتى يومنا هذا. فقدت هُجِّرت قرية تل الملح بالكامل بعد اتفاقية كامب ديفيد مع مصر في العام 1978. ومن ثم هدمت قرى أخرى كاملة مثل أم الحيران والعراقيب ووادي الخليل وقرية السر. وما زالت سياسات ومخططات اقتلاع القرى النقباوية وتهجير سكانها مستمرة حتى يومنا هذا.

## الإحالات

[1] Theodore Edward Downing, *Gaza: A City of Many Battles (from the family of Noah to the Present Day)* (London: Society for Promoting Christian Knowledge, 1913).

[2] Ibid.

[3] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين** ( بيروت: دار الطليعة، 1965).

[4] تقرير الميجر كلود جارفيس، ملف FO 371/61868، وزارة الخارجية البريطانية، الأرشيف الوطني البريطاني (TNA)، كيو، لندن.

[5] المصدر نفسه.

[6] الأرشيف البريطاني (TNA)، ملف WO 303/496، وزارة الحرب البريطانية.

[7] المصدر نفسه.

[8] أحمد أمارة، **ديار بئر السبع: جنوب فلسطين العثماني – الأرض والمجتمع والدولة** (الدوحة/بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2024)، 154.

[9] المصدر نفسه، 164.

[10] أرشيف رئاسة الوزراء العثمانية (Başbakanlık Osmanlı Arşivi – BOA)، ملف: DH.SFR.391/92، إسطنبول.

[11] **الصحراء المصورة**، 1916، عدد محفوظ في أرشيف الصحف العثمانية، إسطنبول.

[12] أمارة، مصدر سبق ذكره، 219.

[13] Mansour Nasasra, and Bruce Stanley, "Assembling Urban Worlds: Always-Becoming Urban in and through Bir al-Saba," *Urban History*, Vol. 51, No. 2 (2024): 391–413.

[14] Ibid.

[15] الأرشيف البريطاني (TNA)، ملف FO 195/2452/1153، وزارة الخارجية البريطانية ، كيو، لندن.

[16] أوراق اللنبي، ملف Allenby 4/3، مركز ليدل هارت لأرشيفات الدراسات العسكرية، كلية كينغز–لندن (King's College London – Liddell Hart Centre for Military Archives – KCLMA).

[17] المصدر نفسه .

[18] Ellen Fleischmann, *The Nation and Its "New" Women: The Palestinian Women's Movement, 1920–1948* (Berkeley: University of California Press, 2003).

[19] Edward Horne, *A Job Well Done: Being a History of the Palestine Police Force 1920–1948* (Essex: Palestine Police Old Comrades Benevolent Association, 1982), 109.

[20] منصور النصاصرة، **بدو النقب وبئر السبع: 100 عام من السياسة والنضال**، ترجمة ساندرا الأشهب (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2020).

[21] أوراق أكونور، ملف O'CONNOR 3/14/53، مركز ليدل هارت لأرشيفات الدراسات العسكرية، كلية كينغز–لندن (KCLMA).

[22] Gawain Bell, *Shadows on the Sand: The Memoirs of Sir Gawain Bell* (London: C. Hurst and Company, 1983), 116–117.

[23] مركز ليدل هارت لأرشيفات الدراسات العسكرية، ملف O'CONNOR 3/4/44، كلية كينغز–لندن KCLMA.

[24] النصاصرة، **بدو النقب وبئر السبع**، مصدر سبق ذكره.